مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 12 العدد: 05 السنة 2020 ص 297 - 312

تاريخ الإرسال: 2019/10/07 تاريخ القبول: 2020/08/31
تاريخ النشر: 2020/11/03

النشاط التعليمي للزوايا في الجزائر من خلال كتابات أبي القاسم سعد الله

Educational activity of Zawaya in Algeria through the writings of Abu al-Qasim Saadallah

د. خيري الرزقي ،
جامعة باتنة 1 (الجزائر)، KHAIRI2028@GMAIL.COM

الملخص:

يتمحور المقال حول موضوع التعليم في الزوايا خلال الحقبة الاستعمارية بالتركيز على زوايا الجنوب الجزائري كالزاوية التجانية وزاوية الهامل والأدوار التي لعبتها في نشر التعليم العربي الحر بدرجات متفاوتة رغم مضايقات الإدارة الاستعمارية، وما توصّلت إليه من الحفاظ على ثوابت الهوية الوطنية إلى حد ما.

حيث نسجل طرائق تدريس متنوعة ومختلفة من زاوية إلى أخرى من حيث نظام الإيواء والتعليم والتمويل، ورغم هذا إلا أن بعضا منها اهتم بتعليم أبناء الزاوية الواحدة فقط، وقد شمل هذا النشاط التعليمي مناطق جمّة من الجنوب الجزائري أين كان فيه التعليم بصفة عامة محظورا ومقيّدا، مع ملاحظتنا إهمال تعليم الإناث والتركيز على الذكور فقط، إضافة إلى الاعتماد على استقبال المدرّسين من زوايا الأقطار المجاورة كزاوية نفطة في تونس.

ويخلص المقال إلى أن الزوايا خاصة الرحمانية وزاوية الهامل التابعة لها قد أثمرت سياستها التعليمية وتخرّج منها العديد من الطلبة أصبحوا فيما بعد مدرّسين

بنفس الزوايا، وهكذا وصلت استراتيجية الزوايا إلى مبتغاها التعليمي ولو بنسبة ضئيلة.

الكلمات المفتاحية: الزوايا؛ التعليم؛ الرحمانية؛ التجانية؛ الهامل؛ السياسة التعليمية؛ التعليم العربي الحر.

Abstract:

The article focuses on the issue of education in the colonial era during the colonial era by focusing on the southern Algerian corners such as the Tijani angle and the Hamel angle and the roles they played in spreading free Arab education to varying degrees despite the harassment of the colonial administration, and its conclusion to preserve the constants of national identity to some extent.

We record a variety of teaching methods from one angle to another in terms of shelter, education and financing system. However, some of these are concerned only with the education of the children of one corner. This activity included large areas of southern Algeria where education was generally prohibited and restricted. Observing the neglect of female education and focusing only on males, in addition to relying on the reception of teachers from the corners of neighboring countries as a corner point in Tunisia

The article concludes that the corners, especially Rahmaniyah and its Hamel angle have borne fruit of its educational policy and graduated many of the students later became teachers of the same angles, and thus reached the strategy of angles to its educational goal, even a small percentage.

Keywords: corners; education; Rahmaniyah; Tidjania; Hamel; educational policy;

المؤلف المرسل: د. خيري الرزقي، الإيميل: KHAIRI2028@GMAIL.COM

1.مقدمة:

كان للزوايا في الجزائر أدوارا متعددة منها ما هو ديني، ومنها ما هو اجتماعي وثقافي وروحي، وساهمت إلى حد بعيد في الحفاظ على الهوية الوطنية خاصة في أيام الاحتلال الفرنسي، ومن أهم الأنشطة التي تكفلت بها الزوايا تلك الحركة التعليمية الواسعة وإن كانت مقتصرة على التعليم الديني كتحفيظ القرآن والفقه وأصوله والمواريث...، ولعل زوايا الجنوب كانت هي الأبرز في هذه الحركة، وقد أولاها المؤرخ أبو القاسم سعد الله –ابن المنطقة– اهتماما واضحا في كتاباته المنشورة او المحاضرات التي كان يلقيها على طلبته، أو الملتقيات التي يشارك فيها.

فما هو هذا الدور التعليمي للزوايا في منطقة الجنوب؟ وما هي أشهرها؟ ونوع التعليم المقدم في ظل إدارة استعمارية ترفض كل ما هو عربي ومن شأنه الحفاظ على الهوية الوطنية؟ وكيف عالج المرحوم أبو القاسم سعد الله هذا الموضوع خاصة من خلال كتابه "تاريخ الجزائر الثقافي"؟.

1– المفهوم الجغرافي لمصطلح الجنوب عند أبي القاسم سعد الله:

لا يحدده جغرافيا بمعالم ثابتة أو بأسماء جغرافية ثابتة ومعروفة، فأحيانا كلمة الجنوب تعني المناطق التي تلي سلسلة الأطلس الصحراوي وعليه تصبح مناطق بوسعادة، المسيلة، بريكة، الأغواط، البيّض، عين ماضي كلها مناطق جنوبية.

وفي مرات أخرى يعني مصطلح الجنوب أرض الرمال مثل العرق الشرقي الكبير والعرق الغربي فيصبح الجنوب يبدأ من مناطق وادي سوف، تقرت، ورقلة، ميزاب، متليلي، وإقليم التوات، وفي هذا يقول أبو القاسم سعد الله: "إلى آخر القرن الماضي كان المقصود بالجنوب هذه الحدود والبلدان والواحات حيث النخيل والرمال

والشمس المحرقة... لكن منذ آخر القرن الماضي امتدت الحدود إلى بشار وتندوف ورقان وعين صالح والمنيعة وتمنراست وجانت وأصبح الجنوب هو تلك المساحات الشاسعة من الصحراء"[1].

وعند أبي القاسم سعد الله أن مصطلح الجنوب هو كل المناطق الواقعة وراء الأطلس الصحراوي إلى حدود مالي والنيجر، وإذا ما تتبعنا غنى المنطقة الثقافي فقد نجدها تمتاز بزخم هائل من الزوايا، والعلماء، والمؤلفين والمكتبات، والمخطوطات وغيرها، وقد اشتهرت بعض المناطق منها بحركة التصوّف مثل عين ماضي وتماسين وقمار والقنادسة والهامل وطولقة وغيرها.

2- الحركة التعليمية للزوايا في الجنوب:

ما يهمنا من كل هذه الأنشطة ما تعلق بالحركة العلمية للزوايا أو ما يسميها سعد الله "ظاهرة الزوايا التعليمية" من دون التطرق إلى موضوع الزوايا عموما، فقد كان تعليم القرآن ظاهرة تعليمية اشتركت فيها كل الزوايا بما فيها الزوايا التي تنتهج طرقا أخرى غير التعليم، فنجد أن الزاوية كمؤسسة (مدرسة) لنشر التعليم التقليدي كان عددها قلاليا، فقد صرح سعد الله أنها لم تكن تتجاوز العشرة وهو رقم ضعيف كما يبدو لنا مقارنة مع المساحة الشاسعة لمنطقة الجنوب، كما تستثنى هنا حركة التعليم الحرة في الجنوب والتي قام بها بعض المعلمين والمدرسين خارج نشاط الزوايا في المساجد ومنازلهم الخاصة مثال ذلك حركة الشيخ محمد بن علي بن شبيرة وأخوه أحمد في بوسعادة[2]، وحركة الشيخ محمد بن عبد القادر من نفس المدينة، وحركة محمد بن يوسف أطفيش في منطقة ميزاب، والشريف بن الأحرش في الجلفة وغيرهم في بسكرة والوادي وتقرت والأغواط.

ويمكن لنا أن نفصل في الحركة التعليمية للزوايا بالجنوب الجزائري على النحو التالي:

أ- زاوية طولقة:

من أقدم الزوايا في الجنوب أسسها الشيخ علي بن عمر رغم الظروف الصعبة التي واجهته عند عملية التأسيس، وأقصد بالدرجة الأولى سياسة الاحتلال الفرنسي، وتنازع أهل المنطقة في إعلان الولاء بين الأمير عبد القادر وأحمد باي (عائلة بوعكاز وعائلة ابن قانة)، فكان على الزاوية أن تنتهج طريقا حذرا، ومحايدا في الوقت نفسه، كما مرت الزاوية بمرحلة حرجة عند إعلان ثورة 1871 وكانت حينها على يد الشيخ علي بن عثمان الذي لم يعلن الولاء للشيخ الحداد في ثورته وإعلانه للجهاد وظلت ظاهريا محايدة، لكن على العموم لا يعنينا هذا الجانب السياسي.

إن ما يهمنا هو الدور التعليمي لزاوية طولقة حيث بذلت جهدا معتبرا في نشر التعليم العربي الحر وبعض العلوم الإسلامية الأخرى، فعند عهد علي بن عثمان[3] تم تأسيس مكتبة متنوعة، وفتحت أبواب الزاوية للتلاميذ القادمين من مختلف ربوع الوطن وكانت حركتها التعليمية قوية جدا.

ومن الذين ساهموا في هذه الحركة التعليمية بالزاوية كان والد السيخ الحفناوي صاحب كتاب "تعريف الخلق"، حيث تولى التدريس بالزاوية التي كانت تضم حينها ما بين 40 إلى 50 تلميذا وعددا هائلا من العاملة في مسجد الزاوية، وتطور استقبال التلاميذ في القرن العشرين كان بعض منهم أعضاء في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فيما بعد؛ وفي هذا قال أبو القاسم سعد الله: "... وهم مدينون لها بالولاء ولشيوخها بالاحترام، ويبدو أن الزاوية لم تكن معارضة للحركة الإصلاحية إذ بطبيعة المنطقة حب العلم واللغة العربية والتدين"[4].

وانطلاقا من تطور الحركة التعليمية بالمنطقة وبفعل سياسة الاحتلال الفرنسي المناهضة للتعليم العربي الحر المدعوم من الأوقاف الإسلامية انحصر وانكمش هذا

التعليم في الزوايا الصوفية أو زوايا المرابطين الذين اعترفوا بسلطة الإدارة الفرنسية عليهم لأسباب سياسية واجتماعية.

إن انشغال زاوية طولقة وزاوية الهامل في بوسعادة بحركة التعليم كان بغرض التنافس بينهما أحيانا، وأحيانا أخرى كان بفعل تغاضي الفرنسيين على ذلك، ومن جهة بغرض انتزاع الشعلة من زاوية نفطة في تونس، ولعل كل هذه الأسباب جعلت حركة زاوية طولقة التعليمية تزداد نشاطا وعملت على جلب أكبر عدد من التلاميذ، وكان من بين المريدين لها علماء من تونس أشهرهم المكي بن عزوز وابنه محمد الكامل والشيخ محمد الخضر حسين الذي نزل بعنابة، والعاصمة وباتنة، وأسس هؤلاء زوايا أخرى في عين البيضاء، خنشلة، وسوق أهراس، وكانت وادي سوف أقرب النقاط إلى زاوية نفطة فقد استقبلت التلاميذ من الأوراس وغيرها من المناطق الأخرى وهي التي كانت بها زاوية سيدي سالم التابعة لزاوية طولقة من حيث الطريقة لأن شيخها أخذ الإجازة على يد بن عثمان، كما بعثت زاوية سيدي سالم تلاميذ إلى زاوية نفطة كان منهم الشيخ عبد القادر الياحوي والشيخ العربي التبسي.

وبهذا تكون زاوية طولقة قد لعبت دورا تعليميا محليا (داخليا) وخارجيا مع دول الجوار وزواياها الأخرى.

ب- زاوية الخنقة:

في منطقة خنقة سيدي ناجي كانت هناك زاويتان هما:

الزاوية الناصرية التي تتبع عائلة ابن حسين، والزاوية الرحمانية التي أسسها الشيخ عبد الحفيظ، وكل منهما ساهم في نشر التعليم سواء في المنطقة أو المناطق المجاورة لهما؛ وبحكم ان الزاوية الرحمانية انتهجت خطا معاديا لفرنسا بعد دعمها لثورة الزعاطشة وثورة الصادق بن الحاج بالأوراس فقد عمدت الإدارة الفرنسية على كسب ود الزاوية الناصرية ومنحوا شيوخها بعض المناصب القيادية[5]، لكن ما ننبه

إليه هنا أن مبدأ التعليم عند الزاويتين كان محترما رغم الاختلافات في المواقف السياسية.

ومن تلاميذ زاوية خنقة سيدي ناجي كان الشيخ العربي التبسي لمدة 3 سنوات "وكانت زاوية أولاد جلال قد سارت في نفس الاتجاه أيضا على يد الشيخ المختار بن خليفة، وكانت قد خدمت أهل الناحية سيما أولاد نائل والسحاري بنشر التعليم والمحافظة على مبادئ الدين أثناء سيطرة الاحتلال على الجنوب"[6].

ج- زاوية الهامل:

درس الشيخ محمد بن بلقاسم (مؤسس الزاوية) في زاوية أبي داود بمنطقة زواوة وهي الزاوية التي كانت حينها تهتم بدراسة الفقه، وعاصر شيوخ الرحمانية أمثال الحاج عمر، والحداد والبوحليلي، كما عاصر مقاومات شعبية منها الأمير عبد القادر وثورة الشريف بوبغلة، وثورة الصادق بن الحاج في الاوراس، وهذه الأوضاع ساهمت إلى حد بعيد في توقف نشاط الزوايا التعليمي وخرب بعضها وحمل طلبتها السلاح، ومع مطلع سنة 1849 أسس محمد بن بلقاسم زاوية أولى له في منطقة الهامل وتصادف انشاؤها مع ثورة الزعاطشة التي شارك فيها سكان المنطقة، وكان انشاء الزاوية من عطاء وسخاء الأهالي خاصة عن طريق الملكية المشاعة، وبعدها تفرغ الشيخ لتدريس العلوم التي كان قد اكتسبها "وكانت الناحية متعطشة للتعليم فأقبل عليه التلاميذ من كل فج... لأن السلطات الفرنسية لا تسمح بالتعليم على هذا النطاق إلا في حدود التصوف الذي يخدم مصالحها... "[7].

ورغم هذه الحركة التعليمية إلا أن الزاوية لم تستطع تعدي حدود الواقع المر وتمثل هوية الشعب الثقافية أحسن تمثيل بسبب عراقيل إدارة الاحتلال، ورغم ذلك فقد مثل موقفهم موقف الصمود والتحدي والمقاومة للحفاظ على الثقافة الوطنية.

ولقد استعان الشيخ محمد بن بلقاسم بشيوخ آخرين في التدريس منهم ابن أخيه محمد بن الحاج ومحمد بن عبد الرحمان الديسي، وعاشور الخنقي، وهم الذين كرسوا حياتهم للتدريس والتأليف خاصة محمد بن عبد الرحمان الديسي، "فكانت زاوية الهامل تبعث نورا عاليا في الخافقين" أو كما قال أبو القاسم سعد الله، وهو كلام يوحي لنا بالمكانة التعليمية لشيخ الزاوية ومكانته الروحية، في حين اشتهر الشيخ الديسي في مجال الفقه واللغة والعقيدة وشاعت سمعة الشيخ عاشور في الشعر* وزادت سمعته الأدبية[8].

أما من ناحية البرامج التعليمية في زاوية الهامل فقد كانت هي نفسها البرامج القديمة للدراسات العربية والإسلامية، فنجد أن الشيخ محمد إلا جانب تدريسه للفقه والتفسير والحديث والتوحيد، كان أيضا يدرس الأدب والتاريخ والسيرة النبوية، وتدعمت هذه الدراسات أكثر عند انضمام الشيخ عاشور، وتدعمت أيضا الدراسات في المنطق والعقيدة بانضمام الشيخ الديسي أي شكل الكل فريق تعليمي متكامل بزاوية الهامل.

وبفعل توافد الكتب والمخطوطات والهدايا تكونت مكتبة بالزاوية متنوعة أصبحت مصدر علم مهم لتلاميذ الزاوية ومريديها، وهو ما زاد في عدد روادها وكثرة زوارها، ضف إلى ذلك سمعة شيخها العلمية وسمعة شيوخها من أمثال الديسي رغم عاهة البصر، وبذلك أصبحت زاوية الهامل تمنح الإجازات الصادرة عنها، ومنها إجازة ابن السماية وعبد الحي الكتاني، والقاضي شعيب بن علي والمكي بن عزوز وبعض الزوار منهم الشيخ محمد بن يوسف أطفيش وسليمان الباروني.

وتقول بعض الإحصائيات أن عدد التلاميذ بالزاوية قد تجاوز 1000 طالب، وهو رقم يبدو لنا مبالغ فيه نظرا لمساحة الزاوية الصغيرة آنذاك، اللهم إذا كان العدد المذكور يقصد به مجموع التلاميذ المتخرجين منها أو مجموع التلاميذ الوافدين عليها

من مناطق الجوار "والذي لا شك فيه هو أن الزاوية أصبحت مدرسة ثانوية فيها خلية كبيرة من المعلمين والتلاميذ"[9].

ومن خلال تتبع المصادر الأخرى التي تحدثت عن الزاوية تكاد تجمع كلها على أن هذه المؤسسة قد انتهجت برنامجا تكوينيا محكما في عدة تخصصات كما سبق ذكره، ولها انضباط خاص من حيث الإقامة، والتكوين، والنظافة، والإيرادات المالية، حيث كان لابد لدخول التلاميذ إلى الزاوية بشرط حفظ القرآن وإن لم يكن كذلك فحتما على التلميذ أن يمر بمرحلة إعدادية تأهيلا له ولا يدفع في جميع مراحله أية رسوم مقابل ذلك سواء للدخول أو للدراسة.

كانت مصادر تمويل الزاوية من الهدايا والزيارات وبعض تبرعات المحسنين وأملاك الأوقاف* التابعة لها التي زادت ونمت باستمرار، وعلى العموم فإن برنامج التدريس كان مقلدا تمام لبرنامج التدريس في جامع الزيتونة، حيث كان هناك تدرج في المستويات من الابتدائي إلى الدراسات العليا، وتكاد تكون الكتب المقررة واحدة[10] مع تداول العلوم الدينية والعربية، إضافة إلى تدريس علم الفلك والحساب والمنطق والعروض وهي كلها علوم كانت تدرس بالزاوية. وكانت دروس الشيخ محمد القاسمي (الهاملي)[11] ودروس الشيخ الديسي تعد من الدروس في المراحل العالية.

لقد اهتزت زاوية الهامل بعد وفاة شيخها حول الخلافة الروحية لكن خلافتها العلمية استمرت قائمة على ما كانت عليه في عهدها الأول طالما كان الشيخ الديسي هناك، كما أن مكانة وسمعة الشيخ عاشور قد اهتزت بعد صدور كتابه الذي يحمل عنوان "منار الإشراف" وتعرض للسجن ولهجمة من بعض الجهات وكل هذه العوامل كان من شأنها أن تؤثر على الحركة التعليمية للزاوية التي بقيت على تلك الحال إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى، حيث برزت شخصيات وأفكار جديدة في الزاوية التي كانت قد وقعت بين خيارين وهما الاختيار بين أن تكون على الخط الطرقي القديم،

أو على الخط الإسلامي الجديد، وهنا تغيرت معطيات الزاوية ولم تعد كما كانت على عهد الشيخ محمد بن بلقاسم (الهاملي).

وأمام ظهور الأحزاب السياسية الباحثة عن الأتباع والأنصار كان من الصعب على رؤساء الزاوية المحافظة على المكانة القديمة رغم إمكانية بقائهم على طريقة مؤسسها الأول، إلا أنهم أعلنوا مساندتهم للإدارة الفرنسية التي ولتهم بعض المناصب الرسمية وربما كان هذا أول خط انحراف للزاوية عن مسارها الأول "وأصبح الشيخ مصطفى القاسمي الهاملي هو المتكلم الرسمي في التجمعات الطرقية التي كانت تعدلها وتشرف عليها الإدارة الفرنسية، ورغم أن التعليم قد بقي حيا في الزاوية إلا أنه لم يبق من أجل الهدف الذي كان يعمل له الشيخ الهاملي والديسي"[12].

ومن هنا يتضح لنا جليا أن زاوية الهامل قد انحرفت عن مسارها التعليمي والسياسي الوطني بعد وفاة الشيخ الهاملي خاصة بعد الحرب العالمية الأولى، فقد عارض زعيمها مصطفى القاسمي الاتجاه الوطني الجزائري الممثل في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وحزب الشعب الجزائري، وبالمقابل ساند وترأس مؤتمر الزوايا المعاكس تماما للتيار الوطني[13] والمناصر للطريقة[14].

ويبدو أن المؤرخ سعد الله غير راضٍ تماما عن أداء مصطفى القاسمي الذي مدحه بعض من الكتاب من أمثال ابن بكار إذ قال: "وهو الذي أسس جامعة الزوايا والمعاهد العلمية الدينية الصوفية في الجزائر للذود عن حرمة الدين وصيانة عقائد المسلمين السنيين، وحمل رايتها عند ظهور المتطرفين"[15].

لكن للأسف كلمة المتطرفين هنا المقصود بها هم علماء وأعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وهي الجمعية التي شارك مصطفى القاسمي في تأسيسها ثم انفصل عنها، وقد كان رد أبو القاسم سعد الله هنا واضحا إذ قال: "ولعله كان الأفضل للشيخ مصطفى وللجزائر أن يواصل رسالة الزاوية الأولى في التعليم بعيدا

عن هذه اللجان الرسمية وجامعة الزوايا والمعاهد العلمية الدينية الصوفية التي كانت تأتمر بأمر الإدارة الفرنسية"[16].

ومما تقدم نخلص إلى أن الدور التعليمي لزاوية الهامل كان في أوجه في مرحلتها الأولى على عهد مؤسسها الشيخ الهاملي، وهي المرحلة التي لم تدم وما لبثت أن تغيرت في عهد مصطفى القاسمي وارتمت في أحضان الإدارة الفرنسية وأصبحت مناهضة لرجالات الحركة الإصلاحية بقيادة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ولرجالات الحركة الوطنية بزعامة حزب الشعب وهو تطور في مسار الزاوية يستحق دراسات متخصصة.

د- الزاوية التجانية:

بالرغم من أن الزاوية التجانية قامت على أفكار أحمد التجاني المتصوف إلا أن أسلافه في الجزائر لم يتبعوا أسلوبه في التعليم ولم يعتمدوا على التعليم أصلا كأساس في نشر سمعتهم الصوفية واكتفوا ببعض الطقوس التي تتنافى أحيانا مع العلم والدين.

تولى محمد الصغير ابن أحمد التجاني امر الزاوية بعد وفاة سيخ تماسين سنة 1844 وهو السبب الذي جعل زاوية عين ماضي التجانية تعجز عن استقطاب التلاميذ والعلماء، واقتصر نشاطها على تحفيظ القرآن الكريم فقط لأبناء المنطقة، وهو نشاط تشترك فيه مع باقي مساجد أي قرية أخرى.

كما زادت الزاوية في فقد مكانتها بعد وفاته أيضا، ومنه عاد مركز ثقل الزاوية من جديد إلى تمايش وأصبحت زاوية عين ماضي خالية من أي مدرّس أو أي مكتبة أو حتى لا وجود لأي وريث روحي لها، وفي هذا قال أبو القاسم سعد الله: "... وقد ظل أمر زاوية عين ماضي على تلك الحال حتى في العهود اللاحقة... وكان الشيوخ عادة هم الذين يعطون المثل في التعليم والاهتمام بالتلاميذ وجمع الكتب ومراسلة

العلماء وتبادل الزيارات معهم، ولكن هذه السيرة لم تعرفها عين ماضي مع الشيوخ الذين تولوا أمر زاويتها بعد الشيخ محمد الصغير"[17].

ومن خلال هذا التصريح نخلص إلى أن الزاوية لم تعط اهتماما لا للحركة التعليمية ولا للتلاميذ، واقتصر على النشاط الصوفي فقط؛ أما بقية المشايخ ممن تولى أمر الزاوية فيما بعد فلم يهتموا كذلك بالجانب التعليمي، فلم يؤسسوا المجالس العلمية ولا إقامة الزيارات ومن هؤلاء كان الشيخ محمد العيد بن الحاج علي التماسيني، وهو معاصر لشيخ زاوية الهامل محمد بن أبي القاسم وغيره من أصحاب الزوايا التعليمية الأخرى.

ومع مرور الزمن بدأت الزاوية التجانية في تغيير طريقتها وبنيها للتعليم دون أن تعلن ذلك رسميا لأنها كما يبدو زاوية لا تعيش من التعليم كباقي الزوايا الأخرى، وهذا باعتمادها على جانب التصوف، ويوضح أبو القاسم سعد الله أن التعليم المقصود هنا ليس هو التعليم المفتوح للعامة وإنما كان مقتصرا على الخاصة من أبناء الزاوية أنفسهم فقط، وهذا ما دفع بشيوخ زاوية قمار وتماسين بعد انتشار حركة التعليم بالجزائر إلى إرسال أبنائهم قصد التعليم في تونس، وتذكر بعض المصادر الأخرى أن زاوية تماسين وزاوية قمار قد جلبت إليها بعض العلماء من تونس لتعليم أبناء الزاوية منهم الشيخ محمد اللقاني السائحي المتأثر بحركة النهضة والإصلاح وربما يكون هو من بعث روح الهجرة للتعليم في أبناء الزاوية[18].

ومجمل القول عن الزاوية التجانية بفرعيها في عين ماضي وتماسين أنها لم تهتم بالحركة التعليمية على القدر الذي كان عند الزوايا الأخرى المعاصرة لها كزاوية الهامل في بوسعادة، وما كان من اهتمام كان فرديا عائليا فقط خاص بأبناء الزاوية لا أكثر، ولم يشترك فيه شيوخ الزاوية لإعطاء القدوة والمثل.

وكتقييم لدور الزاوية التجانية يقول سعد الله: "إن حديثنا يجب أن يكون عن مساهمة هذه الزاوية العتيدة في إنهاض الجزائريين والمحافظة على اللغة العربية والدين الإسلامي ومقاومة تيار الفرنسية الذي غزا البلاد وطغى على عقول الناس، وكاد يمسخ حتى المعالم والملامح ويمحو الهوية الوطنية للبلاد، هذه المساهمة غير متوفرة عند الزاوية التجانية او هي غير معلومة للباحثين حتى الآن"[19].

هـ- زوايا التعليم بالمسيلة:

منها الزاوية التي أسسها محمد بن عبد الله الديلمي وهي رحمانية أيضا، وصاحبها هو الحاج محمد بن عبد الله بن عبد القادر بن أبي زيان بن مبارك بن الموهوب يتصل نسبه بالشيخ محمد بن عزوز الديلمي المسيلي.

استقبل محمد بن عبد الله في دروسه كل الفئات العمرية وعادة ما كان يفتتح درسه بتفسير آيات من القرآن الكريم، ثم يدر لتلامذته النحو والفقه والتوحيد وهي المواد التي كانت الإدارة الفرنسية تسمح بتدريسها ومنعتها في بعض الأوقات والمناطق أحيانا، كما كان الشيخ محمد الديلمي يستعين ببعض تلامذته القدماء عن زيادة عدد الوافدين إلى الزاوية، واستمر في هذا النشاط ما يقارب 40 سنة؛ ويقول عنه أبو القاسم سعد الله: "وكان أيضا يجمع التصوف إلى العلم، فكان يلقّن الإخوان أوراد الرحمانية وأسماء الله الحسنى، وبعد حياة يبدو أنها متقشفة تقشّف العصر الذي ظهر فيه توفي الشيخ سنة 1942 ودفن بجوار جده في المسيلة"[20].

وبهذا النشاط التعليمي للزوايا نجد أن منطقة المسيلة هي الأخرى كان لها دور في نشر العلم عن طريق دور الزوايا تحت غطاء الطريقة الرحمانية رغم عراقيل الإدارة الفرنسية[21].

الخاتمة:

مما سبق عن حركة التعليم التي قامت بها الزوايا في الجنوب الجزائري نخلص إلى الاستنتاجات التالية:

– أسهمت الزوايا خاصة التابعة للرحمانية في نشر التعليم العربي الحر وعلى رأسه تحفيظ القرآن الكريم والفقه والسيرة وتعدى ذلك حتى إلى تدريس بعض العلوم التي كانت تعد جديدة على المجتمع الجزائري، كالفلك والحساب...

– تعد زاوية الهامل في بوسعادة من أنشط الزوايا وأكثرها حركية في مجال التعليم، فقد كان اهتمامها الأول والأخير في بداية عهدها، مع ملاحظة تراجع هذا النشاط في عهدها الثاني بعد وفاة الشيخ الهاملي، وأصبحت أداة طيعة في يد الإدارة الفرنسية ومناهضة لكل ما هو إصلاحي ووطني.

– اختلف دور الزوايا التعليمي من زاوية إلى أخرى حسب درجة اهتمام مشايخ الزوايا وتركيزهم على التعليم الفردي الخاص بأبناء الزاوية فقط.

– لم تكن الزاوية التجانية بفرعيها في عين ماضي وتماسين في المستوى التعليمي المطلوب منها، وراحت تركز على التصوف والجانب الروحي فقط.

– مراقبة الإدارة الاستعمارية لنشاط الزوايا التعليمي مهما كان شيخها وطريقتها.

وفي الأخير يمكن القول أن زوايا الجنوب قد أسهمت إلى حد بعيد في نشر التعليم العربي (الدين) وفي الحفاظ على الهوي الوطنية الجزائرية رغم سياسة التجهيل التي اعتمدتها إدارة الاحتلال الفرنسي.

المراجع:

[1]– أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص137.

[2]- نفيا إلى تونس من قبل إدارة الاحتلال الفرنسي بسبب المشاركة في ثورة الزعاطشة، وتوفيا في حدود سنة 1270هـ.

[3]- كان عهده ما بين 1842 و 1896.

[4]- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، المرجع السابق، ص216.

[5]- اتبعت فرنسا نفس السياسة مع قادة زاوية شلاطة في منطقة زواوة.

[6]- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، المرجع السابق، ص218.

[7]- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، المرجع السابق، ص219.

[*]- حول الحركة الشعرية في الجزائر ينظر: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج8، (1830-1954)، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.

[8]- كان الشيخ عاشور يوقع أشعاره ورسائله باسم مستعار هو "كليب الهامل" أي حارس زاوية الهامل والأشراف بها.

[9]- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، المرجع السابق، ص291.

[*]- للمزيد حول موضوع الأوقاف ينظر: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، (1830-1954)، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.

[10]- لمعرفة نماذج من الكتب التي تدرس بزاوية الهامل ينظر: محمد علي دبور: نهضة الجزائر الحديثة.

[11]- توفي الشيخ الهاملي سنة 1897.

[12]- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، المرجع السابق، ص223.

[13]- للمزيد ينظر: أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج3.

[14]- لكسب فكرة أوسع عن الطرق الصوفية ينظر: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، (1830-1954)، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1998.

[15]- ينظر: ابن بكار: مجموع النسب، ص157-158.

[16]- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، المرجع السابق، ص232.

[17]- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، المرجع السابق، ص224.

[18]- للمزيد عن حياة الشيخ محمد اللقاني السائحي ينظر: الهادي السنوسي: شعراء الجزائر.

[19]- الهادي السنوسي: شعراء الجزائر، المرجع السابق.

[20]- ابن بكار: مجموع النسب، المرجع السابق، ص ص 171-173.

[21]– للمزيد حول عراقيل الإدارة الفرنسية ينظر: عمورة عمار: موجز في تاريخ الجزائر، دار ريحانة للنشر والتوزيع، ط1، 2002.

وكذلك عن الحالة الاقتصادية التي حتمت على الجزائريين التقشف في المعيشة يراجع: أبو القاسم سعد الله: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دون تاريخ، ص149، وما يليها.